تفسير السبع المثاني عند الإمام النورسي

(دراسة موضوعية)

م. م. طارق خليفة درج

قسم التفسير وعلوم القران

كلية العلوم الإسلامية الرمادي – جامعة الأنبار

الخبير اللغوي

أ.د. إنقاذ عطالله العاني

المقدمة

الحمد لله قبلاً وبعداً ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذي كان لله عبداً وعلى آله وصحبه الطيبين الموحدين الذين لم يشركوا بعبادة ربهم أحدا . وبعد من فضل الله على الإنسان انه لم يتركه في الحياة يستهدي بما أودعه الله فيه من فطرة سليمة ، تقوده الى الخير وترشده الى البر فحسب ، بل بعث إليه بين فترة وأخرى رسولاً يحمل من الله رسالة ومنهاجا يدعوه الى عبادة الله وحده ، وليبشر ولينذر لتقوم عليه الحجة قَالَ تَعَالَى: ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾ ﴾ النساء ١٦٥ . فالقرآن رسالة الله إلى الإنسانية كافة ، وقد تواترت النصوص الدالة على ذلك في القرآن قَالَ تَعَالَى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِي لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾ الأعراف ١٥٨ . وتحدى رسول الله صلى الله عليه وسلم العرب بالقرآن وقد نزل بلسانهم وهم أرباب الفصاحة والبيان ، فعجزوا عن أن يأتوا بمثله . وكتب الله له الحفظ دون تحريف أو تبديل قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾ الحجر ٩ . فأصبح القرآن الكريم بهذه الخصائص يعالج المشكلات الإنسانية في شتى مرافق الحياة الروحية والعقلية والبدنية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية علاجاً حكيماً ، لأنه تنزيل الحكيم الحميد ، ويضع لكل مشكلة بلسمها الشافي على أسس عامة ، فاكتسب بذلك صلاحية لكل زمان ومكان . والإنسانية المعذبة اليوم بضميرها ، المضطربة في أنظمتها المتداعية في أخلاقها . لا عاصم لها من الهاوية التي تتردى فيها إلا القرآن والسنة النبوية.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ ﴾ طه ١٢٣ – ١٢٤ . حتى وجد المسلمون وحدهم الذين يحملون المشعل وسط هذه النظم والمبادئ فحري بهم أن يقودوا الإنسانية الحائرة بالقرآن الكريم حتى يأخذوا بيدها إلى





شاطئ السلام . وكما كانت لهم الدولة بالقرآن في الماضي فإنها كذلك لن تكون لهم إلا به في الحاضر .

لهذا كان سبب اختياري هذا الموضوع لأن السبع المثاني سورة عظيمة في القرآن الكريم . يردد المسلم هذه السورة سبع عشرة مرة في كل يوم وليلة وأكثر من ضعف ذلك إذا هو صلى السنن . فهي من كليات العقيدة الإسلامية بل هي تصور لمعاني الإسلام . فكان لابد لمعرفة معاني وألفاظ وفهم ما تريد السبع المثاني من كل من يقرؤها حتى تكون لها التأثير في حقيقة المصلي وغيره الذي يكرر قراءتها . رغم أننا لا نجد لها التأثير في نفوس وسلوك وحياة من يقرؤها . فوجدت أن أطالع هذه السورة على يد عالم جليل زاهد ومتواضع . كالإمام النورسي رحمه الله تعالى حيث تناول هذه السورة . في كليات رسائل النور التي هي طريقة حقيقة ، وهي نور موحىً من الآيات القرآنية ولم تكتسب من علوم الشرق ولا من فنون الغرب ، بل هي رسائل معنوية للقرآن الكريم . وهي برهان باهر للقرآن الكريم وتفسير قيم له . لأن رسائل النور تفسير لمعاني وألفاظ القرآن الحكيم التي تعالج القضايا الإسلامية في حياة الفرد . لأنها تكون عنده تصورات إيمانية جديدة وتهدم التصورات الفاسدة والسلوك الضعيف فإنها تدور حول معاني التوحيد وحقيقة الآخرة وصدق النبوة وعدالة الشريعة مما دفعني الى أن اجمع تفسير سورة الفاتحة من هذه الرسائل النورانية التي سميت كل رسالة باسم يوحي إلى ما فيها من وقفات . فوجدت لهذا الإمام من نهج لتفسير هذه السورة وغيرها منهجاً جديداً يوحي ربط عصارة الذهن بالعلم والقلب بالصلة وأظهر في تفسيره خلاصة عقيدته المستنبطة من وحي القرآن والسنة النبوية المطهرة . ولهذا قسمت بحثي المتواضع حول تفسير هذه السورة الكريمة على عدة مطالب:

فكان المدخل نبذة مختصرة عن حياة الإمام النورسي.

أما المطلب الأول:–تكلمت فيه عن البسملة واثبات أسماء الله التي فيها.

والمطلب الثاني:– في بيان الحمد والثناء والاعتقاد بالربوبية .




أماالمطلب الثالث:- بيان الرحمة الإلهية .

والمطلب الرابع:- فيه إثبات ملكوت الله تعالى.

أما المطلب الخامس:- فيه اقتصار العبودية والاستعانة بالله .

أما المطلب السادس:- توجه العباد بالدعاء لهدايتهم إلى الصراط المستقيم . ثم الخاتمة وقائمة بأهم المصادر والمراجع.

ومن الله التوفيق

المدخل . نبذة مختصرة عن حياة الإمام النورسي

ولد الإمام النورسي سنة ١٢٩٣ هـ الموافقة لسنة ١٨٧٣م في قرية (نورس) من قضاء ((خيزان)) التابع لولاية (بتليس) شرق الأناضول في تركيا .

وهو من أسرة كردية صالحة تقية تعمل بالفلاحة والزراعة . فكان أبوه رجلاً ورعاً عابداً . وأمه امرأة صالحة وهو من وسط عائلة عابدة عالمة . فكان أخوه الكبير الملا عبد الله . عالماً يقوم بمهمة التدريس لطلاب العلم .

وبدأ في وقت مبكر من طفولته بطلب العلم لما كان يستمتع به من ذكاء ونباهة فائقة فأخذ يتعلم في كتاتيب قرية (طاغ) على يد أستاذه (محمد أفندي) سنة ١٨٨٢م وعمره تسع سنوات وتلقى دروساً في علم النحو والصرف على يد أخيه الكبير (الملا عبد الله) ثم واصل الدراسة وطلب العلم في قرية (بيرمس) الى أن بلغ من العمر خمس عشرة سنة . بدأ ينتقل في القرى والمدن بين العلماء والفقهاء يتلقى على أيديهم علوم الشريعة الإسلامية وعلوم العربية . ثم ارتحل في سنة ١٨٨٨م الى (بتليس) والتحق بمدرسة الشيخ (أمين أفندي) ثم الى (مكس) حيث مدرسة (أمير حسن ولي) وهكذا استمرت رحلته الطويلة بين القرى والمدارس والشيوخ . الى أن بلغ من العمر تسع عشرة سنة حين بدأ يلقي الدروس ويجيب عن أسئلة السائلين . وبعدها راجع كثيراً من كتب علم النحو والتفسير والحديث والفقه مما جعله يحفظ عن ظهر قلب أكثر من ثمانين كتاباً من أمهات هذه العلوم . وفي سنة ١٨٩٦م وقد بلغ النورسي سن الثالثة

والعشرين من عمره شد الرحال الى استانبول ليقدم مشروعاً لإنشاء جامعة إسلامية . باسم مدرسة الزهراء التي تقوم على نشر حقائق الإسلام .(١) وبعد رحلة طويلة من طلب العلم والتعليم والجهاد والوقوف أمام الاستعمار والحكام الظالمين وخدمة طلبة العلم تم سجن الإمام النورسي سنة ١٩٥٠م وهذا أيضا بعد رحلة متنقلة من سجن الى سجن . وبعد أن سمع بالحملة الوحشية التي نشبت على الإسلام . سمح الإمام لأول مرة لرسائل النور بالطبع والنشر . وبقى الإمام يوجه تلامذة النور حتى وفاته في الخامس والعشرين من رمضان سنة ١٣٧٩هـ الموافق سنة ١٩٦٠م (٢)

أما منهجه في التفسير فوجدت أن المتتبع لرسائل النور يجد إنها رسائل غير مختصة لشرح مفاهيم الإسلام فقط . إنما هي أيضا تفسير قيم للقرآن الكريم بل هي التفسير من بين التفاسير التي تتصف بعدة خصائص معينة ومهمة قد لا نجدها مجتمعة في غيرها من التفاسير وبالأخص في عصرنا الحاضر . والذي جعل هذا التفسير بهذه الصفة والخصوصية . عدة أمور اعتمد عليها الإمام رحمه الله تعالى . ومن أهمها الاعتماد على القرآن الكريم الذي يرى بأنه يضم بين دفتيه حقائق جميع العلوم . ومراعاته في التفسير بأن يخاطب الطبقات البشرية كافة ابتداء من العوام وانتهاء بالخواص وبأسلوب سهل . وذلك من خلال نظرته بأن القرآن الكريم لم ينزل لطبقة دون أخرى . واعتماده على السنة النبوية المطهرة واعتبر إتباع السنة هو أساس المفسر الذي يقوم بالتفسير . نظر في تفسيره العصر الذي عاشه حيث إن الإمام رحمه الله وجد في عصره الشبهات والتيارات الضالة والهجمة البغيضة على الإسلام . كذلك كان يخاطب في تفسيره العقل والروح والوجدان . ووجدت الإمام وضع شروطاً للمفسر منها أن يكون عالماً حقاً وصاحب فكر واسع واطلاع شامل . وكان ينظر ألا يبقى المفسر تحت تأثير اهوائه الشخصية ، ولا يختلط نهجه واجتهاداته الشخصية بتفسيره ، من اجل أن تبقى حقيقة المفسر صافية نقية . وان يكون ثابتاً في خدمة دينه ، عظيم الصدق وعظيم الوفاء والتضحية . كل هذا جعل هذا التفسير بهذا المقام .

المطلب الأول

البسملة واثبات الأسماء الثلاثة وعلاقتها برحمة الخلائق

قَالَ تَعَالَى:﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾ الفاتحة : ١

من ينظر في تفسير هذه الآية يجد إن الله تعالى استعان بثلاثة أسماء من أسمائه الحسنى وهي الله ، الرحمن ، الرحيم . وإن جملة ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾ هي آية واحدة تكررت مائة وأربع عشرة مرة في القرآن الكريم وذلك لأنها حقيقة كبرى تملأ الكون نوراً وضياءً . فما من احد إلا وهو بحاجة ماسة إلى هذه الحقيقة في كل حين ، كحاجتنا إلى الهواء والضياء اللذين نضطر إليهما ونشتاق لهما كل دقيقة .

فقال الإمام : لما انزل (بِسْمِ اللَّهِ) لتعليم العباد أي يا محمد صلى الله عليه وسلم قل هذا الكلام وعلمه الناس . لأنها تعني رمز الإلوهية . وبين أن حرف الباء تلويحٌ الى التوحيد . و (الرَّحْمَٰنِ) تلميحٌ الى نظام العدالة والإحسان . و (الرَّحِيمِ) إيماء إلى الحشر .

(بِسْمِ اللَّهِ) كالشمس يضيء نفسه لغيره ، فاستغنى . حتى إن باءه متعلقة بالفعل المفهوم من معناها – أي : استعين به ، أو المفهوم عرفاً ، أي : أتيمن به ، أو بما يستلزمه . أما الاسم . فاعلم ! إن لله أسماء فعلية متنوعة كالغفار والرزاق والمحيي والمميت وأمثالها . وتنوعها وتكثرها بسبب تعدد نسبة القدرة الأزلية إلى أنواع الكائنات . أي بسبب علاقة القدرة الأزلية وتعلقها بأنواع الكائنات وأفرادها (٣) . (اللَّهِ) لفظة الجلال نسخة جامعة لجميع الصفات الكمالية لدلالتها التزاماً عليه بسر استلزام ذاته تعالى بصفاته بخلاف سائر الأعلام ، لعدم الاستلزام . ((الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ)) إن لفظ الجلال الله كما يتجلى منه الجلال بسلسلته ، كذلك يتراءى الجمال بسلسلته من (الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ) . إذ الجلال والجمال أصلان تسلسل منهما – بتجليهما في كل عالم: كالأمر والنهي ، والثواب والعذاب ، والترغيب والترهيب والتسبيح والتحميد ، والخوف والرجاء . وأيضا كما أن لفظ الجلال

إشارة إلى الصفات العينية والتنزيهية ، كذلك (ٱلرَّحِيمِ) إيماء إلى الصفات الغيرية الفعلية ، (ٱلرَّحۡمَٰنِ) رمز الى الصفات السبع التي هي لا عين ولا غير . (٤)

إذاً ((ٱلرَّحۡمَٰنِ)) بمعنى الرزاق ، وهو عبارة عن إعطاء البقاء . والبقاء تكرر الوجود . والوجود يستلزم صفة ميزة وصفة مخصصة وصفة مؤثرة . وهي العلم والإرادة والقدرة . والبقاء الذي هو ثمرة إعطاء الرزق يقتضي عرفاً ثبوت البصر والسمع والكلام ، إذ لابد للرزاق من البصر ليرى حاجة المرزوق إن لم يطلب . ومن السمع يستمع كلامه إن طلب ومن الكلام ليتكلم مع الواسطة إن كانت . إن قلت ((ٱلرَّحۡمَٰنِ)) الدال على النعم العظيمة ((ٱلرَّحِيمِ)) الدال على النعم الدقيقة يكون صنعة التدلي . والبلاغة في صنعة الترقي من الأدنى إلى الأعلى . وان قلت ((ٱلرَّحۡمَٰنِ)) و ((ٱلرَّحِيمِ)) كأمثالهما بمبادئها محال في حقه تعالى كرقة القلب . وان أريد منها النهايات . أي قصد الأنعام الذي هو نتيجة ولازم لمعنى حقيقتها . فما حكمة المجاز ؟ قلت هي حكمة المتشابهات . التي محال استعمال معناها الحقيقي بحقه تعالى ، كاليد .

وهي أيضا التنزلات الإلهية إلى عقول البشر ، لتأنيس الأذهان وتفهيمها (٥)

ويقول الإمام أثناء تأملي في البسملة رأيت نوراً من أنوار ((بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ)) على عدة علامات زاهرة أول هذه العلامات هي علامة الإلوهية ، تلك الآية الكبرى ، الساطعة من التعاون والتساند والتعانق والتجاوب الجاري في أجزاء الكون كله بحيث يتوجه ((بِسۡمِ ٱللَّهِ)) إليها ويدل عليها .

أما العلامة الثانية : هي علامة الرحمانية ، تلك الآية العظمى ، الزاهرة من التشابه والتناسب والانتظام والانسجام واللطف والرحمة السارية في تربية النباتات والحيوانات بحيث يتوجه ((بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ)) إليها ويدل عليها . أما العلامة الثالثة وهي علامة الرحيمية ، تلك العلامة السامية ، الظاهرة من لطائف الرأفة الإلهية ودقائق شفقتها وأشعة رحمتها المنطبعة على سيماء الماهية

الجامعة للإنسان بحيث يتوجه اسم ((ٱلرَّحِيمِ)) الذي في ((بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ)) إليها ويدل عليها .(٦)

يقول رحمه الله . في بيان لفظ (بِسۡمِ ٱللَّهِ) ينبغي ألا تؤخذ النعم التي ترد لأسباب ووسائل ظاهرية على حساب تلك الأسباب والوسائل ، لان ذلك السبب وتلك الوسيلة ، إمالة اختيار أو لاختيار له فان لم يكن له اختيار - كالحيوان والنبات - فلا ريب انه يعطيك بحساب الله وباسمه . وحيث انه يذكر الله بلسان حاله أي يقول : بِسْمِ اللهِ ، ويسلمك النعمة . فخذها باسم الله وكلها . ولكن إن كان ذلك السبب له اختيار ، فعليه أن يذكر الله ويقول : بِسْمِ اللهِ ، فلا تأخذ منه إلا بعد ذكره اسم الله لأن المعنى الإشاري فضلاً عن المعنى الصريح للآية الكريمة ﴿ وَلَا تَأۡكُلُواْ مِمَّا لَمۡ يُذۡكَرِ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ ﴾ الانعام: من الآية ١٢١ هنا يرمز الى أن لا تأكلوا من نعمة لم يذكر اسم مالكها الحقيقي عليها وهو الله ، ولم يسلم إليك باسمه . وعلى هذا فعلى المعطي أن يذكر اسم الله وعلى الأخذ أن يذكر اسم الله .

فان كان المعطي لا يذكر اسم الله ، وأنت في حاجة الى الأخذ فذكرت الاسم . ولكن ارفع بصرك عالياً فوق الرأس المعطي . وانظر الى يد الرحمة الإلهية التي أنعمت عليه وعليك معاً وقلبها بالشكر ، وتسلم منها النعمة . أي انظر إلى الأنعام من خلال النعمة ، وتذكر المنعم الحقيقي من خلال الانعام ، إن الذي يوهم عبدة الأسباب ويخدعهم هو : اعتبار احد الشيئين علةً للأخر عند مجيئهما معاً أو عند وجودهما معاً . وهذا هو الذي يسمى ((الاقتران)) .(٧) وهكذا فان هذه الكلمات ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ و ((لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ)) وسائر الكلمات المباركة كل منها بذرة من بذور الأركان الإيمانية ، وكل منها خلاصة لحقائق الأركان الإيمانية والحقائق القرآنية فهي نوى القرآن الكريم أيضا ، كما نشاهد في بدء بعض السور الباهرة حيث تستفتح وكأنها جوهرة لامعة ، وهي كنوز حقيقية وأسس متينة . (٨)

المطلب الثاني

التوجه إلى الله بالحمد والثناء والاعتقاد بالربوبية المطلقة

قَالَ تَعَالَى:﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ﴾ الفاتحة: ٢

إن الكثير من المفسرين أشاروا في تفاسيرهم لرب العالمين بأن هناك ثمانية عشر ألف عالم . وان جمل القرآن الحكيم لا تنحصر في معنى واحد ، وهي في حكم كلي يتضمن معاني لكل طبقة من طبقات البشرية ، وذلك لكون القرآن الكريم خطاباً لعموم طبقات البشر . لذا فالمعاني المبينة هي في حكم جزئيات لتلك القاعدة الكلية ، فيذكر كل مفسر ، وكل عارف بالله جزءاً من ذلك المعنى الكلي ويستند في تفسيره هذا إما الى كشفياته أو الى دليله أو الى مشربه ، وهكذا وجد الإمام النورسي ((ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ)) جامعة لحقائق كثيرة جداً وفهم هذه الآية إن في السماوات والأرض ألوفاً من العوالم ، ويمكن أن يكون كل نجم في مجموعته عالماً بذاته ، وان في الأرض أيضا كل جنس من المخلوقات عالماً بذاته ، حتى إن كل إنسان عالم صغير ،

فكلمة ((رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ)) تعني : إن كل عالم يدار ويدبر شؤونه بربوبيته سبحانه وتعالى مباشرة .(٩) (ٱلْحَمْدُ) وجه النظم من قبله : إن (ٱلرَّحْمَٰنِ) و (ٱلرَّحِيمِ) لما دلتا على النعم استوجبت تعقيب الحمد ، ثم إن ((ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ)) قد بدأت في أربع سور من القرآن الكريم وهي الانعام ، الكهف ، سبأ ، فاطر . وكل واحد منها ناظرة الى نعمة من النعم الأساسية التي هي : النشأة الأولى ، والبقاء فيها ، والنشأة الأخرى ، والبقاء بعدها . فكانت (ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ) في سورة الانعام كل قواعد التوحيد قَالَ تَعَالَى:﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾ ﴾ الأنعام :١. وفي سورة الكهف الى الإبقاء الأول قَالَ تَعَالَى:﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ ﴾ الكهف ١.

وفي سورة سبأ الى الإيجاد الثاني قَالَ تَعَالَى:﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى

ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْآخِرَةِ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ۝١ ﴾ سبأ١.

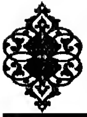
وفي فاطر الى الإبقاء الثاني قَالَ تَعَالَى: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١ ﴾ فاطر١.

فلهذا ابتدأ هذه السورة بالتحميد . (١٠)

ثم وجه نظمه في هذا المقام ، أي جعله فاتحة القرآن هو : انه كتصور العلة الغائية . أي يكون المعلول لأجلها المقدم في الذهن . لأن الحمد صورة إجمالية للعبادة التي هي نتيجة للخلقة ، والمعرفة هي حكمة وغاية للكائنات . فكأن ذكره تصورٌ للعلة الغائية وقد قال عز وجل ((وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)) الذاريات٥٦ أي ليعرفونني كما فسره ابن عباس رضي الله عنه . (لله) أي الحمد مختص ومستحق للذات . تعني اسماً للحقيقة فزال التأنيث . الأقدس المشخص الذي يلاحظ بمفهوم (الواجب الوجود) هو الذي يكون وجوده من ذاته ولا يحتاج الى شيء أصلا . إذ قد يلاحظ المشخص بأمر عام . وهذه اللام متعلقة بمعنى نفسها كأنها تشربت معنى متعلقها . وفي اللام ((لله)) إشارة إلى الإخلاص والتوحيد ((رَبِّ)) أي الذي يربي العالم بجميع أجزائه ، التي كل منها كالعالم عالم ، وذراته كنجومه متفرقةً متحركة بالانتظام . واعلم ! إن الله عز وجل عين لكل شيء نقطة كمال وأودع فيه ميلاً إليها ، كأنه أمرهُ أمراً معنوياً أن يتحرك به إليها ، ((الْعَالَمِينَ)) الياء والنون إما : علامة للإعراب فقط كـ ((عشرين وثلاثين)) أو للجمع ، لأن أجزاء العالم عوالم . أو العالم ليس منحصراً في المنظومة الشمسية . وآثر جمع العقلاء مثل قوله تعالى ((رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ ٤)) يوسف٤

إشارة إلى أن نظر البلاغة يصور كل جزء من أجزاء العالم بصورة هي عاقل متكلم بلسان الحال . إذ العالم اسم ما يعلم به الصانع ويشهد عليه ويشير إليه (١١) ((ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ)) إن مبعث الحمد والشكر في الكون ، هو الآلاء والنعم التي تغدق قصداً ولا سيما إرسال اللبن الخالص السائغ للشاربين من بين فرث ودم





للصغار والأطفال العاجزين . والإحسانات والهدايا . والإكرامات والضيافات الرحيمة التي غطت سطح الأرض برمته ، بل غمرت الكون كله . وهي تعني الإحساس بالأنعام من خلال النعمة نفسها ثم البلوغ منه الى معرفة الرب الجليل . وهكذا فإن الحمد غير المتناهي المنطق بألسنة الأحوال والأقوال ، إزاء هذه الآلاء الشاملة ، يبين كالشمس الساطعة ربوبية عامة وموجودية معبود محمود ومنعم رحيم .(١٢)

((رَبِّ الْعَالَمِينَ)) إننا نشاهد بأبصارنا إن في هذا الكون ألوف العوالم والأكوان الصغيرة . بل ملايين منها ، واغلبها متداخل البعض في البعض ، وبرغم إن إدارة كل منها وشرائط تدبير شؤونها متباينة ، فإنها تدار في منتهى التربية والتدبير والإدارة ، فالكون كله صفيحة مبسوطة أمام نظره جل وعلا في كل آن ، وجميع العوالم تكتب كسطر بقلم قدرته وقدره ، وكل هذا يوحي على وجوب وجود وحدانية رب العالمين الذي يدير هذه الملايين من العوالم والكائنات السيالة بربوبية مطلقة ذات علم وحكمة لا نهاية لها وذات عناية ورحمة وسعت كل شيء .(١٣)

لقد أشار إلى لفظ الحمد والثناء لما فيهما من حجة واسعة وهي أننا نشاهد بأبصارنا وندرك بعقولنا إدراكاً لحد البداهة . إنَّ رزاقاً رحيماً ومحسناً كريماً يتصرف ويدبر أمور مدينة الكون ويرعى شؤون عباده في الأرض ، ويربي معسكر الإنسان والحيوان ، حتى انه حول الأرض الى سفينة تجارية والى قطار لجلب الأرزاق ، ليبعث على الشكر والحمد بما يغدق من نعمةٍ التي لا تعد ولا تحصى جاعلاً منهُ الربيع المبسوط على وجه الأرض ، فمن يملك ذرة من العقل يؤمن بلا شك أن هذا الأمر إنما هو من أفعال رزاق رحيم . ومن لا يؤمن بهذا . ويضل ضلالاً بعيداً يضطر الى إنكار جميع النعم المنضودة والأرزاق المعينة الباعثة على الحمد والشكر .(١٤)

المطلب الثالث

بيان الرحمة الإلهية والصلة الدائمة بين الله والمخلوقات

قَالَ تَعَالَى: ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ ﴾ الفاتحة: ٣

إن من يشاهد بوضوح ضوء الشمس يرى وجود الرحمة غير المتناهية في الكون وحقيقتها . فهذه الرحمة الواسعة تشهد شهادة قاطعة – كشهادة الضياء على الشمس . على الرحمن الرحيم محتجب بستار الغيب . نعم إن قسماً مهماً من الرحمة هو الرزق ، حيث يعطي معنى الرزاق لاسم الله ((ٱلرَّحۡمَٰنِ)) والرزق نفسه يدل على الرزاق الرحيم دلالة واضحة الى درجة تجعل من له ذرة من شعور مضطراً الى التصديق والإيمان فمثلاً : أنه سبحانه يهيئ أرزاق جميع ذوي الحياة ، ولا سيما العاجزين وبخاصة للصغار ، وهم منتشرون على الأرض كافة والفضاء كله ، حتى أنه يُسخر للفراخ الضعاف العاجزة عن الطيران والجاثمة في أوكارها على قمم الأشجار ، وكما انه يُهرع الأرزاق الملائمة الى جميع الأشجار المحتاجة الى نوع من الرزق بصورة خارقة ، ينعم مشاعر الإنسان التي تطلب نوعاً من أرزاق مادية ومعنوية ، ويُحسن الى عقله و قلبه و روحه مائدة واسعة جداً للأرزاق . فتدل لمن لم يطمس على عينه على الرحمن الرزاق والرحيم الكريم بألسنة بعدد تلك السفرات المبسوطة وبمقدار ما عليها من أطعمة . وإذا قيل : إن ما في هذه الدنيا من المصائب والقبائح والشرور تنافي تلك الرحمة التي وسعت كل شيء وتعكر صفوها . فأجاب رحمه الله تعالى عن ذلك : إن لكل عنصر ونوع وموجود . وظائف متعددة كلية وجزئية ، ولكل من تلك الوظائف نتائج كثيرة وثمرات وفيرة . والأكثرية منها هي نتائج جميلة ومصالح نافعة وخيرات ورحمات . وقسم قليل منها يصبح شراً وقبحاً جزئياً وظاهرياً وظلماً إزاء فاقدي القابلية والمباشرين به خطأ . فلو منعت الرحمة ذلك العنصر وذلك الموجود الكلي عن القيام بتلك الوظيفة للحيلولة دون مجيء ذلك الشر الجزئي . لما حصلت إذاً جميع نتائجها الخيرة الجميلة الأخرى

. فتحصل من الشرور والقبائح بعدد تلك النتائج ، حيث أن عدم الخير شرٌ ، وإفساد الجمال قبح . بمعنى أن مئات الشرور والمظالم تقترف للحيولة دون مجيء شر واحد ، وهذا مناف كلياً للحكمة والمصلحة والرحمة التي تتسم بها الربوبية . فالقلب الخالي من الرحمة يرى الكائنات باكية قبيحة تتمزق بين مخالب الظلم وتتقلب في خضم الظلمات بينما لو أبصرها ببصر الإيمان يجدها على صورة إنسان كبير متسربل بسبعين ألف حلة . مخيطة بالرحمات والخيرات والحكم .(١٥)

المطلب الرابع

إثبات ملكوت الله ومآل الإنسان إليه من البعث والنشور

قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾ الفاتحة: ٤

هنا إشارة مختصرة جداً الى ما فيها من حجة وهي أن جميع الدلائل المشيرة على الحشر والآخرة والشاهدة على حجة تشهد الحقيقة الإيمانية الواسعة التي تشير إليها ((مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ)) وكما أن ربوبية صانع الكون ورحمته الواسعة السرمدية ، وجماله وجلاله وكماله الأزلي الأبدي ، وصفاته الجليلة المطلقة ومئات من أسمائه الحسنى ، تستدعي كلها الآخرة قطعاً – وكذلك القرآن الكريم بألوف من آياته وبراهينه وكذلك الرسول الكريم محمد صلى الله عليه وسلم بمئات من معجزاته وحججه . وكذا جميع الأنبياء والمرسلين عليهم السلام . وكذا الكتب السماوية والصحف المقدسة بدلائلها غير المحدودة ، تشهد جميعاً على الآخرة . ومن لا يؤمن بالحياة الباقية في الدار الآخرة إنما يقذف نفسه في جهنم لكفره بها ، فيقاسي العذاب دوماً ، حتى في الحياة الدنيا ، حيث تنزل الأزمنة الماضية جميعها والمستقبلة والمخلوقات والكائنات بزوالها وفراقها السوء على روحه وقلبه فتذيقه آلاماً لا حد لها وأعذبه كعذاب جهنم قبل أن يدخلها في الآخرة .

ويقول رحمه الله وهو يشير برمز ((يَوۡمِ ٱلدِّينِ)) الى حجة عظيمة وقوية للحشر . ولكن حالة فجائية معينة سبب في تأخير تلك الحجة الى وقت آخر . وقد أثبتت الحجج القوية القاطعة أن مجيء صبح الحشر وحلول الربيع يقين كمجيء النهار عقب الليل ومجيء الربيع عقب الشتاء .(١٦)

((مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ)) أي يوم الحشر والجزاء ، إذ الرحمة من أدلة القيامة والسعادة الأبدية ، لأن الرحمة إنما تكون رحمة ، والنعمة نعمة إذا جاءت القيامة وحصلت السعادة الأبدية . وإلا فالعقل الذي هو من أعظم النعم يكون مصيبة على الإنسان ، والمحبة والشفقة اللتان هما من ألطف أنواع الرحمة تتحولان ألماً شديداً بملاحظة الفراق الأبدي . ويقول إن قلت : أن الله تعالى مالك لكل شيء دائماً فما وجه الاختصاص . قال رحمه الله للإشارة الى أن الأسباب الظاهرية التي وضعها الله تعالى في عالم الكون والفساد لإظهار عظمته . أي لئلا يُرى في ظاهر نظر العقل مباشرة .(١٧)

وتتجلى ملكوتية كل شيء صافية شفافة ، بحيث يرى ويعرف كل شيء سيده وصانعه بلا واسطة . وفي التعبير بلفظ ((اليوم)) إشارة الى إمارة من إمارات الحشر بناء على التناسب البين بين اليوم والسنة ، وعمر البشر ودوران الدنيا . كالكائن بين أميال الساعة العادة للثواني والدقائق . والمراد من ((الدِّين)) أما الجزاء ، أي يوم جزاء الأعمال الخيرية والشرية ، والحقائق الدينية أي يوم طلوعها وظهورها وغلبة دائرة الاعتقاد على دائرة الأسباب . لأن الله عز وجل أودع بمشيئته في الكائنات نظاماً يربط الأسباب بالمسببات وألجأ الإنسان بطبيعته ووهمه وخياله الى أن يراعي ذلك النظام ويرتبط به . وكلف الإنسان اعتقاداً وإيماناً بأن يراعي تلك الدائرة بوجدانه وروحه ويرتبط بها . ففي الدنيا دائرة الأسباب غالبة على دائرة الاعتقاد ، وفي الأخرى تتجلى حقائق العقائد غالبة على دائرة الأسباب فمن نظر في مقام دائرة الأسباب بطبيعته ووهمه وخياله ومقاييس الأسباب الى دائرة الاعتقاد اضطر الى الاعتزال . ومن نظر في مقام

الاعتقاد بروحه ووجدانه الى دائرة الأسباب أنتج له توكلاً وتمرداً في مقابلة المشيئة النظامة ؟ (١٨)

المطلب الخامس

اقتصار العبودية والاستعانة بالله رب العالمين

قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ الفاتحة: ٥

عندما يكون المصلي منتصباً قائماً ليقول ((الحمد لله)) فهو يقف أمام كماله الذي لا نقص فيه ، وأمام جماله الذي لا مثيل له ، مُثنياً أمام رحمته الواسعة ليقول ((إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ)) ليعرض عبوديته واستعانته تجاه ربوبية مولاه التي لامعين لها وتجاه إلوهيته التي لا شريك لها ، وتجاه سلطنته التي لا وزير لها . فيركع إظهاراً لعجزه وضعفه وفقره مع الكائنات جميعاً أمام كبريائه سبحانه التي لا منتهى لها وأمام قدرته التي لا حد لها . وأمام عزته التي لا عجز فيها ، ويقول (إِيَّاكَ نَعْبُدُ) أي انتسابه لمالك يوم الدين ولسلطان الأزل والأبد . فيقدم بقوله ((إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ)) عبادات وإستعانات الجماعة الكبرى والمجتمع الأعظم لجميع المخلوقات طالباً الهداية الى الصراط المستقيم الذي هو طريقه المنور الموصل الى السعادة الأبدية ويقول الإمام . قد جعل رب العالمين الأسباب حجباً لإجراءاته ، إظهاراً لعزة ربوبيته وعظمتها ، فضلاً عن انه وضع في قلوب عباده هاتفاً خاصاً وأمرهم بقوله تعالى ((إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ)) أي بعبودية خاصة ليتوجهوا إليه مباشرة تاركين الأسباب ورائهم ظهرياً ، وبهذا يصرف سبحانه وجوه عباده من الكائنات إليه تعالى .(١٩) وفي هذه الآية تصور بديع للإمام عن سبب انتقال صيغة المتكلم الواحد الى صيغة الجمع ((نَعْبُدُ)) . فبرزت فجأة فضيلة صلاة الجماعة وحكمتها . من تلك النون التي في كلمة ((نَعْبُدُ)). لذا تحقق عندي ، انه ليس القرآن كله معجزة بل كل سورة من سوره معجزة ، وكل آية من آياته معجزة بل حتى كل

كلمة فيه بحكم معجزة . وكذلك حروف القرآن معجزة كما في (ن)نَعْبُدُ – هي مفاتيح نورانية لحقائق عظمى . واقل لذلك العقل الحائر أن يتأمل من جميع موجودات العالم سواءاً منها الحي وغير الحي فلكل منها عبودية على شكل وظيفة من الوظائف على وفق نظام دقيق ، وضمن إطاعة تامة . فلهذا كل شيء في الوجود

يقول ضمناً ومعنى : فلهذا على العقل ان يستسلم ويقول آمنا وصدّقنا .(٢٠)

إن تجلي الواحدية في المخلوقات لا حد لها ، لا يحيط به كل من يقول ((إِيَّاكَ نَعْبُدُ)) حيث يتشتت الفكر ويأتيه في تلك الكثرة ، إذ يلزم لملاحظة ذات الله الأحد من خلال مجموع المخلوقات لدى خطاب ((إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ)).(٢١)

لذا فان القرآن دائرة تدور حوله المخلوقات وأدق جزئية من جزيئاته ، إظهاراً لطبائع الوحدانية بوضوح في كل شيء . عندما يبين القرآن الكريم آيات خلق السماوات والأرض يعقبها بآيات خلق الإنسان وبيان دقائق النعمة في صوته وبدائع الحكمة في ملامحه كي لا يشتت الفكر في آفاق شائعة ، ولا يغرق القلب في كثرة غير متناهية ، ولتبلغ الروح معبودها الحق دون وسائط . فالآية الكريمة تبين الحقيقة السابقة بياناً معجزاً قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ الروم٢٢ فان آيات الوحدانية وأختامها مع أنها قد وضعت في المخلوقات بكثرة غير متناهية ، إبتداءاً من أوسع الأختام وأكثرها كلية الى أصغرها جزئية ، فلذا يلزم وجود طابع الاحدية في ثنايا ختم الوحدانية ، كي يفتح الطريق أمام القلب للوصول الى ذات الله الأقدس من دون أن يذكره بالكثرة . ثم لأجل لفت الأنظار الى طابع الاحدية ، وجلب القلوب نحوها ، فقد وُضِعَ فوق تلك السمة الاحدية نقشٌ بديعٌ في منتهى الجاذبية ، ونورٌ باهرٌ في منتهى السطوع ، وحلاوةٌ لذيذة في منتهى الذوق ، وجمال محبوب في منتهى الرحيمية أن قوة تلك الرحمة هي التي تجلب أنظار ذوي الشعور نحوها فتوصلها الى طابع الاحدية وتجعلها تلاحظ ذات الأحد

الأقدس حتى تجعل الإنسان يحظى بالخطاب الحقيقي في ((إِيَّاكَ نَعۡبُدُ)). (٢٢) في الكاف نكتتان . احدهما تضمن الخطاب بسر الالتفات . هو العدول عن الغيبة الى الخطاب أو التكلم ، أو على العكس . للأوصاف الكمالية المذكورة ، إذ ذكرها شيئاً يحرك الذهن ويعده ويملؤهُ ويهزه للتوجه إلى الموصوف ، (إِيَّاكَ) أي : يا من هو موصوف بهذه الصفات . وإشارة بأن ((إِيَّاكَ)) الامتثال بعبادة ربك .

وأما التكلم مع الغير في ((نَعۡبُدُ)) لوجوه ثلاث : أي نعبد نحن معاشر أعضاء وذرات هذا العالم الصغير – وهو أنا – بالشكر العرفي الذي هو إطاعة لكل ما أمر به – أو نحن معاشر الموحدين نعبد بالطاعة شريعتك . أو نحن معاشر الكائنات نعبد شريعتك الكبرى الفطرية ونسجد بالحيرة والمحبة تحت عرش عظمتك .(٢٣)

واعلم أن تقديم ((إِيَّاكَ)) للإخلاص الذي هو روح العبادة . وان في خطاب الكاف رمزاً الى علة العبادة لأن من اتصف بتلك الأوصاف الداعية الى الخطاب استحق العبادة . ((وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ)) هذه كـ ((إِيَّاكَ نَعۡبُدُ)) باعتبار الجماعات الثلاث أي نحن معاشر الأعضاء ومعاشر الموحدين ومعاشر الكائنات تطلب منك التوفيق والإعانة على كل الحاجات والمقاصد التي أهمها عبادتك . وأما العلة من تكرار ((إِيَّاكَ)) لتزيد لذة الخطاب والحضور ، ومقام العيان أعلى واجل من مقام البرهان ولأن الحضور ادعى الى الصدق وبأن لا يكذب . وأن نظم ((نَسۡتَعِينُ)) مع ((نَعۡبُدُ)) كنظم الأجرة مع الخدمة . لأن العبادة حق الله على العبد ، والإعانة إحسانه تعالى لعبده . وفي حصر ((إِيَّاكَ)) إشارة الى أن بهذه النسبة الشريفة التي هي العبادة والخدمة له تعالى يترفع العبد عن التذلل للأسباب والوسائط . بل تصير الوسائط خادمة له وهو لا يعرف إلا واحداً ، وهو الله ومن لم يكن خادما له تعالى بحق يصير خادماً للأسباب ومتذللاً للوسائط . ولكن يلزم على العبد وهو في دائرة الأسباب أن لا يهمل الأسباب بالمرة لئلا يكون متمرداً

في مقابلة النظام المودع بحكمته ومشيئته تعالى . لأن التوكل في تلك الدائرة عطالة .(٢٤)

لفظ العبودية هو التضرع والحمد والدعاء والخشوع والعجز والفقر والاستغناء عن الناس ، وبهذا فقط يمكن الوصول الى كمال تلك الحقيقة ، حقيقة العبودية.(٢٥) ويرى أيضاً أن العبودية تستلزم التسليم دون الخيار والتجربة والامتحان إذ ((للسيد أن يختبر عبده ، وليس للعبد أن يختبر ربه)) .(٢٦) إن غاية العبادة والعبودية هي امتثال أمر الله ونيل رضاه ، فالداعي الى العبادة هو الأمر الإلهي ونتيجتها نيل رضاه سبحانه . أما ثمرتها وفوائدها فأخروية . إلا انه لا تنافي العبدة إذا منحت ثمرات تعود فائدتها الى الدنيا ، بشرط إلا تكون علتها الغاية ، وإلا يقصد في طلبها . فالفوائد التي تعود الى الدنيا والثمرات التي تترتب عليها من نفسها وتمنح من دون طلب ولا تنافي العبودية بل تكون بمثابة حث وترجيح للضعفاء . ولكن إذا صارت الفوائد الدنيوية ومنافعها علة ، أو جزءاً من العلة لتك العبادة أو لذلك الورد أو الذكر فإنها تبطل قسماً من تلك العبادة . بل تجعل ذلك الورد الذي له خصائص عدة عقيمة دون نتيجة . (٢٧)

المطلب السادس

توجه العباد بالدعاء لهدايتهم والنجاة من صراط المغضوبية والضلال

قَالَ تَعَالَى:﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ الفاتحة: ٦ – ٧

عندما ننظر الى قوافل البشرية الراحلة الى الماضي ، نرى أن ركب الأنبياء المكرمين والصديقين والشهداء والأولياء والصالحين أنور تلك القوافل وأسطعها ، حتى أن نورهم يبدد ظلمات المستقبل ، إذ أنهم ماضون في جادة مستقيمة كبرى تمتد الى الأبد . فعلينا الالتحاق بذلك الركب . فتبين أن أعظم خسارة وأعظم هلاك من ترك الالتحاق بهذه القافلة النورانية العظمى ، والتي مضت بسلام وأمان وأزالت حجب الظلمات ونورت مستقبل من يملك ذرة شعور لابد أن

يدرك هذا . وان من ينحرف عن طريق القافلة العظمى بأحداث البدع ، أين سيلتمس النور ليستضيء ، والى أين يكون سبيله ؟ فلقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم : (كل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار) (٢٨) فلهذا يرى الإمام أن الشعائر الإسلامية تكون تبعاً للأوامر الإلهية والنبوية . وان الطريق المستقيم هو الطريق الذي كان عليه ركب الأنبياء ومن بعدهم من الأولياء والصالحين والعلماء الربانيين.(٢٩) ((ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ)) إن اقصر اطرق المؤدية من مكان الى آخر هي الطريق المستقيم وان اقصر الخطوط الممتدة بين نقطة وأخرى بعيدة عنها هي الخط المستقيم ، كما أن طريق الإيمان والتوحيد اقصر الطرق وأصوبها وأيسرها وأكثرها استقامة ، بينما طرق الكفر والإنكار طويلة جداً وذات مشكلات ومخاطر . وهكذا قياساً على ما ذكر فان الاستقامة هي انفع طريق وأسهلها واقصرها من جميع الطرق المسلوكة في حياة الإنسان . وإذا ما فقد الإنسان الصراط المستقيم فان تلك الطرق تكون طويلة جداً وذات بلايا كثيرة ومصائب وأضرار . بمعنى أن ((ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ)) دعاء جامع وعبودية واسعة . كما أنها إشارة الى حجة التوحيد .(٣٠)

((ٱهۡدِنَا)) انها جواب العبد عن سؤاله تعالى كأنه يسأل : أي مقاصدك اعلقُ بقلبك ؟ فيقول العبد : اهدِنَا . وان (ٱهۡدِنَا)) بسبب تعدد مراتب معانيه – بناء على تنوع مفعوله الى الهادين والمتهدين والمستزيدين وغيرهم – كأنه مشتق من المصادر الأربعة لفعل الهداية . فإهدنا باعتبار ثبتنا وبالنظر الى جماعة . زدنا . وبالقياس الى طائفة ((وفقنا)) والى فرقة ((أعطنا)) فان الله بحكم خلق كل شيء وهدى وهدانا بإعطاء الحواس الظاهرة والباطنة ، ثم هدانا بنصب الدلائل الآفاقية والنفسية ، ثم هدانا بإرسال الرسل وإنزال الكتب ، ثم هدانا أعظم الهداية بكشف الحجاب عن الحق فظهر الحق حقا والباطل باطلا.(٣١)

﴿ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ ﴾ الفاتحة: من الآية ٧ فهو الصراط المستقيم والجادة النورانية




لأهل القرآن ، وهو اقصر الطرق وأسلمه وأيسره ، ومفتوح أمام النـــاس كافـــة ليسلكوه ، وهو مسلك سماوي رحماني نوراني .

((ٱلضَّآلِّينَ)) هو مسلك الذين زلوا الى مفهوم الطبيعة وتبنوا أفكار الطبيعيين : وقد شعرتم مدى صعوبة الوصول الى الحقيقة من خلال هذا السير المريــر مــن المشكلات والعوائق .

((ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ)) فهو مسلك عبدة الأسباب والذين يحيلون الخلق والإيجاد الى الوسائط . ويسندون إليها التأثير ، ويريدون بلوغ حقيقة الحقائق ، ومعرفــة الله جل جلاله عن طريق العقل والفكر وحده .(٣٢) من المقصود في قوله ((عَلَيْهِمْ)) تفسره الآية الكريمة ((فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا)) النساء من الأية٦٩ إذ تبين الأصـــناف الأربعـــة الذين ذكرتهم هذه الآية نالوا في النوع البشري نعمة سلوك طريق الاســتقامة ، ويشير بــ ((ٱلنَّبِيِّـۧنَ)) الى سيدهم محمد صلى الله عليه وسلم و بــ ((الصِّدِّيقِينَ)) الى أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، و بــ ((الشُّهَدَاء)) الى عمر وعثمــان وعلى رضي الله عنهم جميعا : فالآية الكريمة تخبر عن الغيـــب وتبـــين لمعـــة إعجاز بأن الذين يأتون بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم الصديق رضي الله عنه ثم عمر ثم عثمان ثم علي رضوان الله علـــيهم أجمعـــين ، سيستـــشهدون ويتولون الخلافة . ثم ذكر هذه الأوصاف الأربعة في تلك الآية تبين أنهم اصـــدق البشر وأقومهم سلوكا وارفعهم شأنا . نعم أن الحقيقة الجليلة التـــي آمـــن بهـــا أولئك الطوائف الأربع المذكورون الذين يمثلون أقوم نوع البشر الذي هو النتيجة المهمة لخلق الكون وخليفة الأرض ، واجمع الأحياء استعدادا وارفعهـــا شـــأنا .

((غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ)) يقول الإمام رحمه الله .

إن تاريخ البشرية والكتب السماوية يخبر بالاتفاق إخباراً قاطعـــاً اســـتناداً الـــى التواتر والى الحوادث الكلية الثابتة والمعارف البشرية والمشاهدات الإنـــسانية ، إن استجابة استمدادات الأنبياء عليهم السلام هم أصـــحاب الـــصراط المـــستقيم

استمدادٌ غيبي فوق المعتاد في ألوف من الحوادث ، وانجاز مطالبهم بذاتها ونزول الغضب والمصائب السماوية بأعدائهم الكفار في مئات من الحوادث ، تدل دلالة قاطعة لا ريب فيها على أن لهذا الكون ولنوع الإنسان الذي فيه : ربا حاكما عادلاً محسنا كريماً عزيزاً مدبراً مسخراً . قد منح من لدنه النصر المؤزر والنجاة الخارقة لأنبياء كرام كثيرين أمثال إبراهيم وموسى وهود وصالح وسائر الأنبياء جميعا عليم الصلاة والسلام .(٣٣)

وانزل في الوقت نفسه مصائب سماوية مرعبة في الدنيا على أقوام ظلمة كفرة أمثال ثمود وعاد وفرعون إزاء عصيانهم للرسل : نعم إن تيارين عظيمين قد جريا متصارعين في البشرية منذ آدم عليه السلام . الأول : هم أهل النبوة والصلاح والإيمان الذين نالوا النعمة وسعادة الدارين بسلوكهم الصراط المستقيم . لذا نالوا الطاف رب العالمين وأصبحوا السبب في رفع الإنسان الى مراتب الملائكة بل ارفع منها وكسبوا أهل الإيمان جنة عنوية حتى في الدنيا ، مع سعادة خالدة في الآخرة : كل ذلك بسر حقائق الإيمان .

والتيار الثاني: هم الذين ضلوا عن سواء السبيل جاعلين بالإفراط والتفريط . فأردوا البشرية في دركات أضل من الأنعام ، فاستحقوا الغضب الإلهي فنزلت بهم صفحات المصائب جزاء ظلمهم الذي ارتكبوه في الدنيا . زد على ذلك أنهم جعلوا بالضلالة التي هم فيها وبالعقل المرتبط مع الموجودات ، فجعلوا الكون موضع أحزان وآلام ومذبحة لذوي الحياة . يتقلبون في دوامات الزوال والغرق . لذا انحصرت روح الضال ووجد انه بجهنم معنوية في الدنيا . وأصبح أهلا لعقاب اليم في الآخرة .

أما كلمة ((آمين)) تعزز أدعية أولئك الموحدين من المصلين ، ونصدق دعواهم ونرجو بكلمة ((آمين)) أن يستجيب الله سبحانه وتعالى استعانتهم وشفاعتهم محولين عبوديتنا الجزئية ودعاءنا الجزئي الى عبودية كلية ودعاء كلي إزاء ربوبية شاملة . بمعنى أن كلمة ((آمين)) تكسب كلية واسعة بل يمكن أن تكون بمثابة ملايين . فهي كلمة جمع الأخوة الإيمانية والوحدة

الإسلامية التي يتربى عليها المصلون المتراصون في الصلاة .(٣٤)

أما ((غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ)) فالمراد منه : الذين تجاوزوا بتجاوز القوة المغضوبية فظلموا وفسقوا بترك الأحكام كتمرد اليهود . ولما كان في نفس تتنفر نفوسهم وهي نزول غضبه تعالى .. واختار الاسم الذي من شأنه الاستمرار إشارة الى أن العصيان والشر إنما يكون سمة إذا لم ينقطع بالتوبة والعفو .

أما ((وَلَا ٱلضَّآلِّينَ)) فالمراد منها الذين ضلوا عن الطريق بسبب غلبة الوهم والهوى على العقل والوجدان فوقعوا في النفاق بالاعتقاد الباطل كالنصارى . فاختار القرآن صفتهم نفسها لأن الضلالة نفسها لم تنفر منه النفس والروح . والضلالة إنما تكون ضلالة إذا لم تنقطع .(٣٥)

الخاتمة

بعد المطاف في هذا البحث وصلنا الى الخاتمة والتي أدون فيها ما توصلت إليه في البحث من نتائج وعلى النحو الآتي :

ابتدأت هذه السورة بذكر ثلاثة أسماء من أسماء الله الحسنى وهي (الله ، الرحمن، الرحيم) عرج الإمام في بيان كل اسم من هذه الأسماء الثلاثة . تبين أن له نظرة خاصة في معنى كل اسم من هذه الأسماء . إذ رأى أن لفظ الجلالة (الله) جامع لجميع الصفات بل هو يعني الجمال . (الرحمن) بمعنى الرزاق . والدال على النعم العظيمة . و (الرحيم) الدال على النعم الدقيقة . أما (الحمد لله) تعني الشكر على ما انعم الله على الخلق . (لله) إشارة إلى الإخلاص والتوحيد . (الرب) أي الذي يربي العالم بجميع أجزائه . (العالمين) الذي يرى فيه أن الكون ألوف العوالم والأكوان الصغيرة بل الملايين . فإنها تدار بربوبية مطلقة ذات علم وحكمة لا نهاية لها . (مالك يوم الدين) أي يوم الحشر والجزاء . وان هذا اليوم لا بد من مجيئه كمجيء النهار عقب الليل . (إياك نعبد وإياك نستعين) بيان لحقيقة العبودية والاستعانة تجاه ربوبية مولاه .

واظهر الإمام رحمه الله إعجاز القرآن الكريم في كل سورة وآية وحرف وهذا تصور بديع يصوره عن سبب انتقال صيغة المتكلم الواحد الى صيغة الجمع في كلمة (نعبد) ويرى أن في هذه الآية التسليم دون الخيار والتجربة والامتحان . إذ للسيد أن يختبر عبده ، وليس للعبد ان يختبر ربه . أما (اهدِنَــا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ) يقول إن اقصر الطرق المؤدية من مكان إلى أخر هو الطريق المستقيم . لأنه طريق الإيمان والتوحيد . وأشار الى (اهدِنَــا) دعاء جامع وعبودية واسعة . و (الضَّالِّينَ) هو مسلك الذين ضلوا الى مفهوم الطبيعة وتبنوا أفكار الطبيعيين . و (المَغضُوبِ عَلَيهِمْ) فهو مسلك عبدة الأسباب . ونظر الى كلمة (آمين) أنها تعزز أدعية أولئك الموحدين من المصلين . أي أن يستجيب سبحانه وتعالى لهم . وبعد كل هذا أن هذه السورة العظيمة اشتملت على الثناء وعلى الصفات العلا . وعلى ذكر المعاد وعبودية العباد الى الله بالسؤال والتضرع . والى إخلاص العبادة له وتوحيده بالإلوهية وتنزيهه أن يكون له شريك . وبيان سؤالهم إياه للهداية الى الصراط المستقيم وهو الدين القويم . وجواز الصراط يوم القيامة المضي به الى جنات النعيم . واشتملت على الترغيب في الأعمال الصالحة ليكونوا مع أهلها يوم القيامة . والتحذير من مسالك الباطل وهم المغضوب عليهم والضالون . وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

الهوامش

١-ينظر إعجاز القرآن اللغوي في فكر النورسي . الدكتور عبد الرزاق عبد الرحمن السعدي . دار الانبار للطباعة والنشر ١٩٩٨ ص٧،٨،٩

٢-ينظر النورسي الرائد الإسلامي الكبير . تأليف الدكتور محسن عبد الحميد . شركة معمل ومطبعة الزهراء الحديثة المحدودة . سنة ١٩٨٧م ص٣٢،٣١

٣-ينظر كليات رسائل النور الكلمات سعيد النورسي . ترجمة إحسان قاسم . ط الثانية شركة سوزلر مصر ١٩٩٢م ١/٥٢٩

٤-كليات رسائل النور . إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز . بديع الزمان سعيد النورسي . ترجمة إحسان قاسم الصالحي . شركة سوزلر للنشر . ط الثانية مصر ٥/٢٤،٢٥

٥-المصدر نفسه . ٥/٢٦

٦-كليات رسائل النور اللمعات . سعيد النورسي . ترجمة إحسان قاسم الصالحي شركة سوزلر للنشر ط الثانية بمصر ١٩٩٣م ٤/ ١٤٦

٧-المصدر نفسه . ٣/٢٠٢

٨-كليات رسائل النور الشعاعات . سعيد النورسي . ترجمة إحسان قاسم الصالحي شركة سوزلر للنشر ط الثانية بمصر ١٩٩٣م ٤/٢٩٣

٩-كليات رسائل النور . المكتوبات . سعيد النورسي . ترجمة إحسان قاسم الصالحي شركة سوزلر للنشر ط الثانية بمصر ١٩٩٢م ٢/٤٣١،٤٣٢

١٠- ينظر كليات رسائل النور . إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز ٥/٦

١١- ينظر المصدر نفسه . ٥/٢٧،٢٨

١٢- ينظر كليات رسائل النور الشعاعات . ٤/٦٤٢

١٣- ينظر المصدر نفسه . ٤/٦٤٢

١٤- ينظر المصدر نفسه . ٤/٦٣١

١٥- ينظر المصدر السابق . ٤/٦٤٣،٦٤٤

١٦- المصدر السابق . ٤/٦٤٥

١٧- رسائل النور . إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز ٥/٢٩

١٨- المصدر نفسه ٥/٣٠

١٩- رسائل النور . الكلمات . ١/ ٤٣،٤٥،٧٣٩

٢٠- ينظر المصدر نفسه . ٢/٥٠٦،٥٠٨،٥٠٩

٢١- كليات رسائل النور اللمعات ٣/١٥١

٢٢- المصدر نفسه . ٣/١٥٢

٢٣- كليات رسائل النور . إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز ٥/٣٠

٢٤- المصدر نفسه . ٥/٣٠،٣١

٢٥- كليات رسائل النور . المكتوبات . سعيد النورسي . ترجمة إحسان قاسم الصالحي شركة سوزلر للنشر ط الثانية بمصر ١٩٩٢م ٢/٥٩٠

٢٦- كليات رسائل النور . المثنوي العربي النوري . سعيد النورسي . تحقيق إحسان قاسم ط الثالثة ٢٠٠٣م الناشر شركة سوزلر للنشر ٦/ ٢٥٧

٢٧- كليات رسائل النور اللمعات ٣/١٩٩،٢٠٠

٢٨- صحيح مسلم بن الحجاج بن الحسين القشيري النيسابوري دار إحياء التراث العربي . بيروت تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي. كتاب الجمعة . باب تخفيف الصلاة . رقم ١٤٣٥ . ٢/٥٩٢ ، سنن أبي داود. سليمان بن أشعث أبو داود السجتاني الازدي . دار الفكر تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد . كتاب السنة . باب في لزوم السنة رقم ٣٩٩١ . ٢/٦١٠

٢٩- كليات رسائل النور . المكتوبات ٢/٥١٠

٣٠- ينظر كليات رسائل النور الشعاعات . ٤/٦٤٩،٦٥٠

٣١- ينظر كليات رسائل النور . إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز ٥/٣١

٣٢- ينظر رسائل النور . الكلمات . ١/٦٥٠

٣٣- ينظر كليات رسائل النور الشعاعات . ٤/٦٥١،٦٥٢

٣٤- ينظر المصدر نفسه . ٤/٦٥١،٦٥٢

٣٥- ينظر كليات رسائل النور . إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز ٥/٣٦

المصـــــــادر

بعد القرآن الكريم

١-إعجاز القرآن اللغوي في فكر النورسي . الدكتور عبد الرزاق عبد الرحمن السعدي . دار الانبار للطباعة والنشر ١٩٩٨م

٢-سنن أبي داود . سليمان بن أشعث أبو داود السجتاني الازدي . دار الفكر تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد .

٣-صحيح مسلم بن الحجاج بن الحسين القشيري النيسابوري دار إحياء التراث العربي . بيروت تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي .

٤-كليات رسائل النور . إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز . بديع الزمان سعيد النورسي . ترجمة إحسان قاسم الصالحي . شركة سوزلر للنشر . ط الثانية مصر ١٩٩٢م

٥-كليات رسائل النور . المثنوي العربي النوري . سعيد النورسي . تحقيق إحسان قاسم ط الثالثة ٢٠٠٣م الناشر شركة سوزلر للنشر .

٦-كليات رسائل النور . المكتوبات . سعيد النورسي . ترجمة إحسان قاسم الصالحي شركة سوزلر للنشر ط الثانية بمصر ١٩٩٢م

٧-كليات رسائل النور الشعاعات . سعيد النورسي . ترجمة إحسان قاسم الصالحي شركة سوزلر للنشر ط الثانية بمصر ١٩٩٣م

٨-كليات رسائل النور الكلمات سعيد النورسي . ترجمة إحسان قاسم . ط الثانية شركة سوزلر مصر ١٩٩٢م

٩-كليات رسائل النور اللمعات . سعيد النورسي . ترجمة إحسان قاسم الصالحي شركة سوزلر للنشر ط الثانية بمصر ١٩٩٣م

١٠- النورسي الرائد الإسلامي الكبير . تأليف الدكتور محسن عبد الحميد . شركة معمل ومطبعة الزهراء الحديثة المحدودة . سنة ١٩٨٧م..